وقصف وحصار وتجويع، في قسوة وقذارة بالغتين، اثارتا السخط والاحتجاج في مختلف انحاء العالم.

وعلى الرغم من شراسة تلك الهجمة، على كل حال، واستمرارها لفترات طويلة، فقد صمدت المخيمات صموداً بطولياً. وكما هو معروف جيداً لم يتم ذلك اعتباطاً، بل جاء نتيجة لجهود مكثفة بذلتها مختلف الاجهزة العاملة في اطار منظمة التحرير الفلسطينية، من توجيه القوى البشرية والموارد المالية الضرورية لصد العدوان، ومن اهتمام مستمر بمتابعة الصراع والاشراف على ادارته، بصورة يومية واحياناً ساعاتية. وليس في كل ما تم تحقيقه على هذا الصعيد، على كل حال، ما يشفي الغليل او يدعو الى الفخر والاعتزاز؛ فمعركة المخيمات ليست، في نهاية الامر، احدى معارك تحرير فلسطين، والاطراف التي خاضت ذلك الصراع ما كان ينبغي ان تتصارع ابداً، لو كان هنالك منطق وعقل سليمان. ولكن، بما ان الصراع فُرض، كان على «الممثل الشرعي الوحيد» للشعب الفلسطيني ان يقوم تماماً بما قام به، باعتبار انه يؤدي واجبه.

هذه هي الحالة الاولى. اما الحالة الثانية، الاكثر شمولاً، فهي تلك «الحرب» الدائرة بين المواطنين الفلسطينيين في المناطق المحتلة، من جهة، وقوات الاحتلال الاسرائيلي وغلاة المستوطنين الصهيونيين، من جهة اخرى، في ظروف غير متكافئة تماماً، وتنم عن تقصير مقاومي واضح. فمنذ سنوات طويلة، يسيطر على هذه الحرب نوع من الرتابة: يقوم الفلسطينيون بالتظاهرات، او برمي الحجارة، او الطعن بالسكاكين، فترد عليهم قوات الاحتلال باطلاق النار، ويسقط الشهيد تلو الآخر. ومجابهة اطلاق الرصاص على المتظاهرين من قبل قوات الاحتلال بشن المزيد من التظاهرات، او الاستمرار في رشق الحجارة، هو دليل كبير على اتساع مدى التحدي والتصميم، لدى قطاعات واسعة من الاهالي، على مقارعة الاحتلال بأي ثمن، من جهة، وعلى فشل منظمات المقاومة الكبير في تنظيم حركة عصيان مسلح، ولو على أضيق نطاق، من جهة اخرى. فلو كان هنالك نزر يسير من الكفاح المسلح، او حتى بقايا رائحته، لكان من الطبيعي للغاية، على سبيل المثال، ان يصار الى الرد على الاحتلال باسلوبه ذاته، اي اطلاق النار على قواته او افراد قواته، هنا وهناك، بعد كل حادث اطلاق نار على المتظاهرين ـ عين بعين وسن بسن، على الاقل. ولا يتم ذلك لأنه ليس هنالك من هو على استعداد للقيام به ـ فمن يرمي الحجارة على استعداد، غالباً، لرمي القنابل ايضاً ـ بل لأن السلاح غير موجود. وعلى سبيل التذكير فقط، عندما كان السلاح موجوداً، في قطاع غزة مثلاً، نشأ هناك، مع مطلع السبعينات، وضع كانت معه، على حد تعبير الاسرائيليين، قوات الاحتلال تحكم في النهار والمقاومة في الليل. اما السلاح، فانه غير موجود، عموماً، لأن اسرائيل نجحت في اقفال الحدود وفرض الحصار على المناطق المحتلة، بينما فشلت المقاومة في اختراق ذلك الحصار، الذي يفترض ان لا يكون من الصعب اختراقه، فيما لو بُذل ما هو ضروري لذلك من التفكير والتخطيط السليمين.

ولم يقف التدهور، في هذا المجال، عند هذا الحد، بل ان الادوار انعكست حتى فيما بعد، فراحت اسرائيل تقوم باعمال «مقاومة» خاصة بها، ثم وسَّعت نشاطها هذا لتصل الى حد قتل كل من تستطيع الوصول اليه من كوادر المنظمة، أياً كان مركزه، او قادتها؛ دون ان يكون هنالك رد ناجع على ذلك. وبلغت بها «الجرأة»، في نهاية المطاف، الى حد شن غارة على المقر الرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية في تونس وقتل عشرات من العاملين فيه. ولم يكن هنالك رد فلسطيني، حتى على ذلك أيضاً. والواضح ان العدو «استوطى حيطنا» ـ بل «ساعدناه» كثيراً على ذلك.

ولا شك في ان هذا المستوى البائس من الاداء المقاومي يضر اكثر مما ينفع، من حيث انه يفقد